

ابن ميادة

بقلم مسن علوان

المدرس بالمدرسة الحديوية الثانوية

حكم الأصمعي عليه - خطأ الأصفهاني في قوله : « إن ابن سلام تعرض لذكره -
 قد أحكام الأقدمين على الشعراء - تحقيق نسب ابن ميادة - تعصبه لقومه واغتصاب
 الفرزدق لشعره - وراثته للشعر - تأثير الدم الصقلي والعربي فيه - هجاؤه عقبة بن كعب
 ابن زهير خال أبيه - بعض نواحي خلقه وخطأ المبرد في فهمها .

لست أدري ما حادني عن الكتابة في شاعر من فحولة الشعر ، وزعيم من
 زعماء القصيد ، إلى الكتابة في ابن ميادة ، وقد أرجعه الأصمعي ، إلى ساقه
 الشعراء ، وردّه إلى مؤخرتهم ، فقد قال : « ساقه الشعراء ابن ميادة وابن هرمة
 ورؤبة وحكم الخضرى ومكين العذرى ، وقد رأيتهم أجمعين » (١)
 هذا حكم الأصمعي على ابن ميادة ، وهو حكم من رآه وخبره ، ونقله
 القريض وذاكره ، قد رماه في زمرة الرجازين ، ولفه في الشعراء المغمورين ،
 وعززه صاحب الأغاني فقال : « إن ابن سلام جعل ابن ميادة في الطبقة السابعة ،
 وقرن به عمر بن لجأ ، والعجيف العقيلي ، والعجير السلولى ، فلما رجعت إلى
 طبقات ابن سلام ، لم أجد فيها ذكراً لابن ميادة أو العجيف العقيلي ، لا في الطبقة
 السابعة ولا في سواها من طبقات الشعراء الإسلاميين ، ووجدت عمر بن لجأ ،
 ذلك الذى هاجى جريراً وأخزاه وأخفه ضمن شعراء الطبقة الرابعة ، والعجير
 السلولى في الطبقة الخامسة ، وقد وجدت شاعراً اسمه القحيف العقيلي في الطبقة
 العاشرة ، ولعله هو العجيف العقيلي الذى أراد الأغاني ، أو لعله غيره ، ولكن
 ابن ميادة قطعاً ، لم يتعرض إليه ابن سلام في طبقات الشعراء ، وأرى أن هذه

إحدى هفوات أبي الفرج ، التي تلقى غبار الريب على روايته ، وتدعونا إلى تمحيص أخباره . والعصمة لله وحده .

وليس من شأني الآن أن أعرض لما قال الأغاني عن ابن سلام ، أو أتكلم في حكم الأصمعي على ابن ميادة وأظهر مافيه من حيف أو إنصاف ، فلأقدمين أحكام جائرة على كثير من الشعراء ، ما كانوا يرمونها بعد نظر مترو ، أو قلب نقي من شوائب الميل ، لأن العصية العربية ، والدعوة الحزبية ، ومكانة الشاعر في قومه ، ومكانة قومه بين العرب ، هي التي كانت تسيطر على أحكام الرواة ، وتحكم في آراء النقاد . فقد يفرض على الشاعر أن يكون من المتخلفين ، وينزل من سماء المجيدين ، ولا يشفع له فؤاد مطبوع ومعان شريفة ، وأسلوب رائق ، لأنه شيعي لا يظهر الخليفة ، أو لأنه هجين أو مولى من الموالى .

ولكني سأتكلم في نواح خاصة بابن ميادة ، جديرة بالبحث والتمحيص ، والعرض والتصحيح . ومن هذه النواحي ، ما يجعل ابن ميادة — في رأيي — خليفاً أن يكون في جبهة الشعراء ، متبوعاً مكانة معاصريه كالفرزدق وجري والاخلط ، من شعراء بني أمية ، أولئك الذين ملأ ذكركم سمع الزمان ، وعرفهم كل إنسان ، وجروا على كل لسان .

كنت إذا أعوزتني حاجة ، إلى تصحيح علم أو ضبطه ، أو تحقيق نسبه ، أرجع إلى مشورة القاموس المحيط ، فأخذ برأيه ، وأرجح قوله ، وأجعله فصل الخطاب ، بين العلماء الذين كتبوا في هذه الأعلام ، واختلفوا فيها ، كابن النديم وياقوت ، والسمعاني ، وابن خلكان والحافظ الذهبي والسيوطي ، فلما أردت تحقيق نسب الرماح بن أبرد^(١) بن ثوبان بن سراقه . . . بن مرة بن عوف . . . ابن غطفان ، المعروف بابن ميادة ، جعلت أقلب بطون الكتب ، وأدير الرأي فيما أقرأ ، فوجدت الكلام عن أمه ، قد أخذ اتجاهين اثنين ، فمن قائل إنها أمة فارسية ،

(١) جاء في الجزء الأول من تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان (ص ٢٩٦) أنه الرماح بن يزيد والصواب ابن أبرد .

لأنه قال يفخر على الناس، ويدل عليهم بنسبه في العرب والعجم، ويزعم أنه خير من ولدت النساء في قوله:

أنا ابنُ أُنَى سَلَمَى، وَجَدَى ظَلَمَ وَأُمَى حَصَانُ أَخْلَصَتْهَا الْأَعَاجِمُ
أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرم من نطت عليه التمام
ومن قائل إنها جارية أشبانية (أشبانة) من سبي الأندلس، جرى بها من
طريق الشام، وابتاعها ثوبان، زوجها ابنه أبرد، فأولدها الرماح، وبهذا يهجو
الحكم الحضري ويتهكم به فيقول:

أأنت ابن أشبانية أدلجت به إلى اللؤم مقلات لثيم جنيها
ولم يند عن هذين الرأيين إلا القاموس، فقد ورد فيه أن ميادة مشددة،
أمة سوداء، وهي أم الرماح ابن أبرد بن ثوبان الشاعر، نسب إليها، فلم أكن
عند هذا حسن الظن بالقاموس وخامرني الشك في صدقه، لأن من يدرس
حياة الرماح، ويستخلص منها طبائعه وشمائله، يحزم أن أمه ليست زنجية
ولا تنزع إلى الزنوج يعرق، ومن يعرف أن ابن ميادة كان صلت الجبين،
حسن الطلعة، أحر سبطا، عظيم الخلقة، طويل اللحية، لباسا عطرأ، (١)
قال عنه عكرمة: «ما دتوت من رجل كان أطيب عرفا منه، يستبعد أن
تكون عليه سمة الزنوج أو فيه رائحتهم. وقد كان يود الحكم الحضري، خصه
ومقارعه، لو كان ابن ميادة يمت إلى السواد بنسب، أو ينزع إليه بسبب حتى
يكون الهجو أبلغ، والذم أوقع، ولكنه لم يجد ما يعيبه عليه، سوى
أن أمه أشبانية أو صقلية، وقد كان عمود فخر ابن ميادة ونسب أبيه في
العرب، ونسب أمه في العجم، فمن أين نقل صاحب القاموس أن أمه زنجية
سوداء؟ والثابت الذي لا شك فيه، أن ميادة أمة صقلية أشبانية، لا فارسية
ولا زنجية، وإن كان الرماح نفسه يزعم أنها فارسية، ولكن الشعراء في معرض
الهجو والإزراء، كانوا يرمونه بأنها صقلية، وهم في ذلك صادقون، لأنه حينما

أنشد موسى بن سيار المري ، وهو من عشيرته وبني عمومته :
 أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرم من نطت عليه التامم
 قال له : لقد أشحطت بدار العجوز ، وأبعدت بها النجعة فهلا غربت ؟ ، يريد
 أنها صقلبية ، ومحلها بناحية الغرب ، فقال : أى بأبى أنت ، إنه من جاع اتجع ،
 فدعها تسر في الناس ، فإنه من يسمع يخل ، أى من يسمع أخبار الناس ومعاييرهم ،
 يقع في نفسه عليهم المكروه ، فلم يستطع ابن ميادة إزاء الحقيقة التي رضخه
 ابن سيار ، وردده فيها إلى صوابه ، إلا أن يعترف معه بأن أمه صقلبية ، ولكنه
 تمسح في الفرس ، ليستمدجد بهم ، لأنهم كانوا أدخل في المدينة وأثبت في العراقة
 من الصقالبة .

وابن ميادة من مرة غطفان ، لا من مرة قريش ، ومن فتیان نجد ، الموسومين
 بصدق العاطفة ، وذكاء الفؤاد ، والاعتداد بالنفس ، وهو إلى هذا مجنون بحب
 قومه ، مقتون بعصيته ، وإن الدم الصقلبي الذي جرى في عروقه من أمه ، لم يخرج
 من بيئة الصحراء ، ولم ينزع عنه عزة العرب ، ونصرة العvisية ، وأنفة البداوة ،
 ولكنه لم يكن في نصرته يميل إلى الجفاء ، ولم يكن في عزته يبلغ حد الجود ، يد
 أنه كان لعباً دعيّاً ، مرحاً طرياً ، خفيف الروح طيب النفس ؛ ولعل الريح
 الأندلسية ، التي نفحته من أمه قد أخرجته من جلالة العرب وخشونة طباعهم ؛
 ولم تخرجه من قوة الشكيمة ، وشدة الكفاح ، والاستماتة في العvisية ، والفخر
 بقومه ، والمناخة عنهم ، حتى أذاع مكارمهم ، وسير في الآفاق ذكراً ، ونشر على
 سمع الناس صحيفة مجدهم فقال :

لو أن جميع الناس كانوا بةلعة وجئت بجدى ظالم وابن ظالم
 لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجامم
 لقد ذكر هذا ، والفرزدق واقف عليه في جماعة ، وهو متاثم ، فلما سمع
 هذين البيتين استعظمهما على ابن ميادة ، واعتصبهما منه اعتصاباً ، على عادته مع
 غيره من الشعراء ، وقال : أنا والله أولى بهما منك ؛ وأقبل على روايته فقال
 اضمهما إليك :

لو ان جميع الناس كانوا بتلعة وجئت بجدي دارم وابن دارم
 اظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجاحم
 ولقد عرف فيه بنومرة شاعراً مدرها، حديد اللسان مذوداً. سمح القريحة
 مفعها، فقد روه قدره، وأكبروه الإكبار كله وعدوه أشعر غطفان، في الجاهلية
 والإسلام، وقالوا إنه خير لقومه من النابغة، وكان مقتصداً في مدائمه حبسها
 على قيس قومه، وعلى قريش أرباب الرسالة والخلافة، فإذا جدّ الجد، فضل
 قيساً على قريش، ولم يبال أن يقول:

إذا حلّ بيتي بين بدْر ومازن ومُرّة نلتُ الشمس واشتد كاهلي
 فضلنا قريشاً، غير رهط محمد وغير بني مروان أهل الفضائل
 وأكبر ظني أنه لولا حرمة النبي - صلى الله عليه وسلم - ولولا سطوة الخلافة
 في بني أمية، لما استلّ من قريش أحداً، وفضل قومه عليهم أجمعين.
 ومالي أذهب بك بعيداً، وقد بلغت به الجرأة، أن يستخف بني أسد وتميم
 وقريش معهما، ويستهن بغضب هؤلاء وهؤلاء، اعتزازاً بقوة قيس عشيرته،
 واعتماداً على عصييته، فيقول:

بني أسد إن تغضبوا ثم تغضبوا وتغضب قريش، تحم قيساً غضابها
 وأحقر محقور تميم أخوكم وإن غضبت يربوعها وربابها
 ولو أن قيساً قيس عيلان أقسمت على الشمس لم يطلع عليكم حجابها
 ولو حاربنا الجن لم نرفع القنا عن الجن حتى لا تهرّ كلابها
 لنا الملك إلا أن شيئاً تعدّه قريش، ولو شئنا لذلت رقابها
 وإن غضبت من ذا قريش، قفل لها معاذ الإله أن أكون أهابها
 وإن غضبت قيس عليك تقاصرت يدك، وفات الرجل منك ركبها

إني لأحس في هذه الآيات، التي يدوّى فيها الصلف والفخر، فزعا شديداً،
 يملأ قلب ابن ميادة من قريش، وأنه قد أوجس في نفسه خيفة منها، وأن شيئين
 يتجاذبانها، هما حمية نفسه الثائرة، وتبكيّل يتوقعه من قريش، فتراه في بيت
 واحد يعلو ويهبط، ويهاب ويثبت، ويستقر ويضطرب، ويوشك قلبه أن يخونه،

ويفر من بين جوانحه ، لولا أنه حمس جرى ، يتجافى عن مطارح الهوان ، ويتصون من معرة الضراعة ؛ اسمع إليه ، وقد ضم ثيابه على أسد ، وثار برأسه الحمية ، فطار بقيس إلى السماء ، وقصر الملك عليهم دون سواهم ، فلما أطلت عليه قريش من قمة الخلافة ، تراجع متعللاً بأن الملك شيء تعده قريش من حقوقها ، فإذا شام في هذه الحقيقة مهانة وأنفا خزماً جمع فؤاده ، وربط جأشه ، وقال : « ولو شئنا لذلت رقابها » . ولست أدري ما الذى منع ابن ميادة وقومه أن يشاموا ؟ وكان داعياً من ذات صدره ، أهاب به أن يرفق بنفسه فلا يلقيها بين فككتي الأسد فقال :

وإن غضبت من ذا قريش فقل لها معاذ الإله أن أكون أهابها
ولعمري إن الخوف ليصرخ من « معاذ الإله أن أكون أهابها » ، وإن الضعف ين في نبراتها ، وإن القلق يضطرب في كل حرف من حروفها . وإنه لتعجبنى تلك الصورة الناطقة ، التي صور بها ابن ميادة في بيته الأخير ، مقدار الهلع والخوف ، الذي يستولى على قلوب الناس من غضب قومه ، فلا يستقر فارس على سرج ، ولا تثبت رجل في ركاب ، ولا تقبض يد على عنان ، فحقت عليهم كلمة الهزيمة ، وجرى الموت وراءهم فأدركهم يردون ، وكأنه أراد بهذه الصرخة القوية ، أن يستمر ما ذهب بكبريائه ، وطأطأ من إشرافه ، حين تعرض إلى قريش .

وما لا ريب فيه أن ابن ميادة كان عنيفا غاية العنف ، فيه رغبة تستحثه على مهاجمة الشعراء ، وإذكاء نار الخصومة بينهم وبينه ، ليجد مجال القول ذا سعة ، في إطراء قومه ، والإضرار بغيرهم ، حتى قالوا عنه إنه كان « عريضا للشر » ، ولقد يبلغ في هجائه أن يكون قاسيا لا ذعا ، شديد التهمك والإغفال لخصومه ، حتى يهبط بهم إلى مهاوى الصغار ، ويرميهم تحت مواطئ الهوان ، ألا تراه يترفع عن هجاء محارب ، ويتحدث في أنفة أن العناية بأمثالها حق لا ينبغي أن يتصف به ، لأن نفسه الكبيرة . وعشيرته العظيمة ، لا يجوز لها أن تقف من محارب موقف الخصم ، وأن تساجلها مساجلة الند للند فيقول :

أظنت سفاهة من سفاهة رأيها أن اهجوها لما هجنتي محارب
فلا وأبها إننى بعشيرتى ونفسى عن ذاك المقام لأراغب

وإن العجب ليأخذ منك مأخذا ، إذا كنت تعلم أن أباه أبرد . كان ضلة من الضلل ورثة من الرث ، جلفا ، قريبا إلى البلاهة والعته ، ثم يكون الرماح ابنه ، في هذه الصرامة والعزة ، والنفس الحادة الشاعرة ، والخصومة العنيفة الهادمة ، وحسن البرزة وبهاء الطلعة ، ولكن عجبك يزول إذا عرفت أن الدم الأجنبي أثر فيه تأثيرا عظيما ، فسوى خلقه . وألان عطفه ، وأذكى فؤاده ، وطيب نفسه ، وأن البيئة العربية ، والحياة البدوية ، أخلصته من شوائب الضعف والاستكانة ، التي قد يحتمل أن تكون تسربت إلى نفسه من أمته الأمانة ، وأن الشعر هبط عليه من جدته سلمى أم والده أبرد ، وسلمى بنت كعب بن زهير ، وناهيك بسلام بمتزج في عروقه الدماء الصقلية بالدماء الزهيرية ، ثم ينتشى هواه نجد ، ويعيش في تلاله ووهاده . غير أن الشاعرية التي ورثها من زهير ، لم تشفع لعقبة حفيده لدى ابن ميادة ، حين تعرض لبني ظالم قومه ، فإنه خاصمه وهاجاه ووقع فيه ، برغم أنه خال أبيه ، فقال :

ولقد حلفت برب مكة صادقا لولا قرابة نسوة بالحاجر
لكسوت عقبة كسوة مشهورة ترد المناهل من كلام عائر
فرد عليه عقبة يغض من شأنه ، وينعى خثولته الضائعة عنده فقال :

ألوما أننى أصبحت خالا وذكر الخال ينقص أو يزيد
لقد قلدت من سلمى رجالا عليهم مسحة وهم العبيد
فقال ابن ميادة يبرا من خثولته ، ويعدها مصدر العارله :

إن تلك خالنا فقبحت خالا فأنت الخال تنقص لا تزيد
فيوما في مزية أنت حر ويوما أنت محتدك العبيد
أحق الناس أن يلقى هوانا ويؤكل ماله العبد الطريد

ولعل القارىء يعرف أن ابن ميادة ، يشير في بيته الثالث ، إلى أن بني ظالم قومه ، سلبو عقبة بغير إله وأكلوه ، فمن أجل ذلك يفخر وبعد خاله عبدا طريدا . لقد أصبح كل شيء هيتا مقبولا في نظر ابن ميادة ، إلا أن يهجو أحد قومه ، أو يبغي على عشيرته ، أو يعرض اليهم بالنقد حقا أو باطلا ، فتثور عند ذلك ثائرتة ويحيش صدره حقدا عليه ، وتطير منه لواذعه وقوارصه ، فتقع عليه ، تجلله

ذاماً ، وتكسوه عاباً ، لا يعرف الهوادة في ذلك ، ولا تأخذ رحمة بكل من يمس بالسوء قومه ، مهما تكن أواصر المودة ، وشواجر الأرحام قوية بينه وبينه .
 وكان في الرماح أنسة وظرف ، ودعابة ولطف . وكان مرحاً فكها ، يجرش أصدقائه وزائريه على أمه ، لينشدوها ما قال الشعراء في هجائها فيثير بينهم وبينها معارك ، وتثور هي لكرامتها ، وتطاردهم بعكازتها ، فينهض هو ليخلصهم منها ، فتنسبه وتشتمه ، وتقول له « يابن من خبت وشر » وتهوى إلى عصا تريد ضربه بها ، فيفر منها ، ويعن في دعابته ، ويقول : « يا صدقها ولم تكن صدوقاً » (١) .
 وكان كثيراً ما يضرب يده على جنبها ، ويقول لها :

اعز نزمي ميساد للقواني واستمعين ولا تخافى
 ستجدين ابنك ذا قذاف

يريد : إني سأهجو الناس فيهجونك ، فاستعدى لسماع الهجاء مطمئنة ، لأنك ستجدين ابنك ، يرمى بقذائفه ، كل من يتعرض بهجاء له . وهذه الصورة الفكاهة المثيرة للمرحاة ، تمثل لنا ناحية جديدة من نفس ابن ميادة لم تكن معروفة في قيان العرب ، ولا مألوفة لنا فيهم ، ولقد أخطأ فهمها المبرد (٢) وعدّها عقوقاً بأمه ، وقسوة منه عليها . ولقد أثر أنه كان شديد الحب لها . فيجور بها ، أليس هو القائل :

أنا ابن ميادة تهوى نجبى صلت الجبين حسي مر كسى
 ترفعى أمى وينينى أبى فوق السحاب ودوين الكوكب

حدث أبو داود الفزارى أنها كانت امرأة صديق . مارميت بشىء ، ولا سبت (٣) ، وإن خير ما وصف به ابن ميادة نفسه في تبه وأناقته ، وعنفه ولطافته قوله :

أنا ابن ميادة لباس الحلل أمر من مر ، وأحلى من غسل

ولعل ما أسلفت يلقى اليك بفكرة شاملة ، وصورة جلية عن ابن ميادة وبعض نواحيه النفسية ، وسنعرض في مقالنا التالى إلى غرامه ونسبه ووصفه ومدائح و مناقضاته بشىء من البسط والتحليل والتعليق . إن شاء الله .

صهبة علوان

(١) ج ٢ ص ٢٦٤ أغاني طبع دار الكتب (٢) ج ١ ص ٣٤ الكامل

(٣) ج ٢ ص ٢٦٥ أغاني